إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

الآيات : ١٢٣ - ١٣٤

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

سبب النّزول :

عن قتادة قال : ذكر لنا أنّ المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم . وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، نبيّنا خاتم النّبيّين ، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ، فأنزل الله : ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجزبه ، إلى قوله : ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً ، فأفلج الله[1] حجّة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان[2] .

شرّف ربّ العزّة المسلمين وكلّفهم بهذا الدّين الذي رضيه الله تعالى وأكمله لهم وأتمّ به النّعمة عليهم . إنّ ثمّة تشريفاً وتكليفاً في آنٍ واحد . وحينما تجادل كلٌّ من المسلمين وأهل الكتاب على نحو ما تبيّن من سبب النّزول ، وحينما عبّر المسلمون عمّا تمنّوه على غرار تمنّي أهل الكتاب الذين قالوا في مناسبةٍ أخرى ، كما جاء على لسانهم في قوله تعالى من سورة المائدة[3] : ﴿ نحن أبناء الله وأحبّاؤه ﴾ بيّنت الآية الكريمة للمسلمين ابتداءً بأنّ الأمور لا تسير وفق أمانيّهم كما أنّها لا تسير وفق أمانيّ أهل الكتاب ، فلا يكفي المسلم أن يقول إنّني مسلمٌ وكفى دون أن يترجم تعاليم الإسلام إلى عمل . إنّ الإسلام تشريفٌ من الله تعالى لعباده المسلمين ، وإنّ الإسلام تكليفٌ فعلى المسلمين أن يبادروا إلى عمل الصّالحات وأن يقدّموا بالعمل الدّليل الصّحيح على سلامة اعتقادهم وصحّة إيمانهم .

ووضعاً من الآية الكريمة للأمانيّ في مكانها الصّحيح ، وطرداً لما قد يكون قد سبق إلى رُوع بعض المسلمين من كون مجرّد الانتماء إلى الإسلام يكفي ويُغني المسلم عن العمل ، بل وربّما تجاوز مرحلة التّقصير في عمل الصّالحات إلى عمل السّيّئات ، وكأنّ عمل السّيّئات يُذْهبه مجرّد الانتماء إلى الإسلام ، إنّ الآية الكريمة في سبيل كلّ ذلك تنصّ

---

(١) فأفلج الله : فنصر الله وأظهر .

(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١٨٥ .

(٣) الآية ١٨ .

على جزاء من يعمل السّيّئات العادل ، وتقرّر أنّ من عمل السّيّئات لن يجد له من الله تعالى وليًّا ، يتولّى شئونه ويرعى مصالحه ، ولا نصيراً ، يعضده ويؤيّده . إنّ الإسلام ناسخٌ للدّيانات قبله ، وإنّ الآية الكريمة تقرّر هذا الحكم الرّبّانيّ في حقّ المسلمين وحقّ أهل الكتاب من قبلهم .

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

النّقير : الذي يكون في ظهر النّواة[1] .

تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن العذاب الأليم الذي أعدّه الله تعالى لمن عمل السّيّئات . وعلى عادة القرآن الكريم المتشابه المثاني الذي يذكر فيه المعنى ويثنّي بعكسه ، تتحدّث الآية الكريمة التّالية هذه عن الثّواب العظيم الذي أعدّه الله تعالى لمن عمل الصّالحات . ورأفةً من الله تعالى بعباده الذين علم جلّ وعلا أنّ فيهم ضعفاً يجيء حرف الجرّ « من » في القول : ﴿ ومن يعمل من الصّالحات ﴾ والمعنى : ومن يعمل شيئاً من الصّالحات ، فليس في مقدور العباد أن يعملوا كلّ الصّالحات أو أن يعبدوا الله تعالى حقّ العبادة . وتنصّ الآية الكريمة على كلٍّ من الذّكر والأنثى . إنّهما سواءٌ في أصل التّكليف وفي الثّواب والعقاب . ويشترط لقبول عمل الصّالحات الإيمان . وقد جعل الله سبحانه وتعالى عمل الكافرين من الصّالحات هباءً منثوراً . ويشترط لقبول الصّالحات كذلك أن يكون المقصود بها الله تعالى وحده لا شريك له . إنّ الذين يعملون الصّالحات من المؤمنين أولئك يدخلون الجنّة يوم القيامة . وإنّ اسم الإشارة « فأولئك » يشير إلى رفيع منزلة المؤمنين . وإنّ نفي ظلم مقدار النّقير ، وهو عبارةٌ عن النُّقرة في ظهر النّواة ، معناه نفي مطلق الظّلم وأصل الظّلم . ولا يقتصر ذلك على الصّالحات التي لا تُنْقص إنّما يشمل السّيّئات التي أشارت إليها الآية الكريمة السّابقة ، فهي لا تضاف . وهذا نوعٌ من العلاقة والتّرابط بين الآيتين الكريمتين .

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

بيّنت الآية الكريمة قبل السّابقة أنّ الأمور ليست منوطةً بأمانيّ المسلمين ولا أمانيّ أهل الكتاب بل بالأعمال الصّالحة ، وقد بيّنت الآية الكريمة عقاب عمل السّيّئات ، كما بيّنت الآية الكريمة التّالية ثواب عمل الصّالحات . وفي هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها تتبيّن منزلة دين الإسلام الرّفيعة على سائر الأديان ، فتسأل الآية الكريمة بقصد التّقرير : ن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله ، الآية ، والمعنى لا أحد أحسنُ ديناً وأصحُّ اعتقاداً وأصوبُ طريقاً وأسلمُ وسيلةً وأنجحُ غاية من ذلك الذي أسلم وجهه لله تعالى وانقاد له جلّ وعلا وأذعن بكلّ جوارحه ومشاعره واستسلم استسلاماً مطلقاً لكلّ أوامر الله تعالى ونواهيه ، وبذلك كانت كلّ أعماله موافقةً للشّرع الحكيم . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تختار الوجه وهو أكرم أجزاء جسم الإنسان دليلاً على الاستسلام المطلق للذّات العليّة بكل الجوارح التي تقل عن الوجه منزلةً على الاستسلام المطلق لله تعالى ممّا هو دليلٌ على صحّة الأعمال من حيث الظّاهر لموافقتها للشّرع يقترن بها صحّة القصد من الدّاخل وسلامة النّيّة وذلك ما عبّر عنه بالقول : « وهو محسن » إنّ الإحسان يصحّ أن ينظر إليه من أكثر من جانب ، فنحن نستطيع أن نتبيّن فيه معنى الإحسان كما بيّنه الحديث النّبويّ الشّريف بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، ويقترن بذلك إخلاص العمل لله تعالى وإتقان ذلك العمل الذي عرفنا أنّه موافقٌ من حيث الظّاهر لما جاء به الشّرع الحكيم .

وتأكيداً للاتّباع وسلامة الظّاهر والباطن وطرداً للابتداع وقد قال عزّ من قائل في سورة المائدة[1] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ يجيء النّصّ على الاتّباع وذلك في القول : ﴿ واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾ والمعروف أنّ المصطفى ﷺ قد أمره الله تعالى بأن يتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً ، قال تعالى[2] : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾ فالمطلوب اتّباع ملّة إبراهيم عليه السّلام ودين خليل الله تعالى أبينا إبراهيم عليه السّلام قاصدين إلى هذه الملّة مخلصين في الإقبال عليها متحاشين كلّ ملّةٍ أخرى قد شابها الإشراك مع الله تعالى غيره منحرفين عن كلّ دين سوى

(١) الآية ٣ .

(٢) سورة النّحل ١٢٣ .

دين الإسلام لله ربّ العالمين . وإنّ إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء الذي وفّى كما نعته القرآن الكريم والذي ابتلاه الله تعالى بكلمات فأتمّهنّ ، وبتكاليف فقام بها على أحسن وجه ، والذي بعثه الله تعالى بالحنيفيّة ، والذي جعله للنّاس إماماً وأسوةً حسنةً يتأسّون به في مجال الدّين ، قد بعث الله سبحانه وتعالى محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين بملّته الحنيفيّة السّمحاء . وإنّما يكون اتّباع ملّة إبراهيم الحنيفيّة السّمحة باتّباع ملّة محمّد ابن عبد الله ﷺ . وبهذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة ترفع دين الإسلام الذي بعث به محمّد ابن عبد الله ﷺ على سائر الأديان .

وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها أنّ الله سبحانه وتعالى قد اتّخذ إبراهيم عليه السّلام خليلاً ، صفيًّا خالص المحبّة لله تعالى ووليًّا . والخُلَّة ، بضمّ الخاء ، أرفع درجات المحبّة . وإذا كانت الخلّة من إبراهيم عليه السّلام قد تجلّت في شدّة محبّته لربّه عزّ وجلّ التي تمثّلت في طاعته جلّ وعلا طاعةً مطلقة ، فإنّ الخلّة من ربّ إبراهيم عليه السّلام تجلّت في العديد من الصّفات منها جعله للنّاس إماماً يهتدون بهديه ويستضيئون بنوره ومنها أنّ ربّ العزّة جعل له لسان صدقٍ في الآخرين ، بمعنى الثّناء الحسن إلى يوم الدّين .

« ثبت في الصّحيحين من رواية أبي سعيدٍ الخدريّ أنّ رسول الله ﷺ لمّا خطبهم في آخر خطبةٍ خطبها قال : أمّا بعد أيّها النّاس ، فلو كنت متّخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتّخذت أبا بكر بن أبي قُحافة خليلاً ولكنّ صاحبكم خليل الله »[1] .

وهكذا يتبيّن أنّ كلاً من إبراهيم عليه السّلام ومحمّد ﷺ خليلٌ لله تعالى .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾

فضلاً منه تعالى على إبراهيم ومِنّةً ، اتّخذه الله تعالى خليلاً ، وذلك بسبب إقباله الكلّيّ على الله تعالى ومسارعته إلى رضاه وطاعته المطلقة له جلّ وعلا ، والله سبحانه وتعالى هو الغنيّ فله ما في السّماوات وما في الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً ، ومن هؤلاء العبيد إبراهيم عليه السّلام الذي اتّخذه الله تعالى وليّاً ، وأنتم أيّها النّاس إن اتّخذتم من إبراهيم عليه السّلام ومحمّد ﷺ أسوةً حسنة اتّخذكم أولياء . إنّكم أيّها النّاس فقراء إلى الله تعالى وإنّ الله سبحانه وتعالى هو الغنيّ فاشكروا لي أيّها العباد أزدكم واذكروني أيّها العباد أذكركم وأخلصوا العبادة لي وحدي لا شريك لي ، واعلموا أنّي محيطٌ بكلّ شيء فلا يخفى عليّ مثقال ذرّةٍ

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٦٠ .

في السّماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتابٍ مبين وسأجازي كلاً بعمله ونيّته ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرّ .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

سبب النّزول :

روى البخاريّ[1] عن عائشة رضي الله عنها : ويستفتونك في النّساء قل الله يفتيكم فيهنّ إلى قوله : وترغبون أن تنكحوهنّ . قال : هو الرّجل تكون عنده اليتيمة هو وليُّها ووارثها فَتَشْرَكُه في ماله حتّى في العَذْق[2] فيرغبُ أن ينكحها ويكره أن يزوّجها رجلاً فيشرَكُهُ في ماله بما شَرِكته فيَعْضُلها ، فنزلت هذه الآية . وكذلك رواه مسلم[3] .

ويستفتونك في النّساء : ويسألك يا محمّد أصحابك أن تفتيهم في أمر النّساء والواجب لهنّ وعليهنّ ، فاكتفي بذكر النّساء من ذكر شأنهنّ لدلالة ما ظهر من الكلام على المراد منه[4] .

وما يتلى عليكم في الكتاب : قل الله يفتيكم فيهنّ وفيما يتلى عليكم[5] عن ابن عبّاس قال : كان أهل الجاهليّة لا يورّثون المولود حتّى يكبر ولا يورّثون المرأة ، فلمّا كان الإسلام قال : ويستفتونك في النّساء قل الله يفتيكم فيهنّ وما يتلى عليكم في الكتاب في أوّل السّورة ، في الفرائض ، اللّاتي لا تؤتونهنّ ما كتب الله لهنّ[6] وعن سعيد بن جبير أنه لما نزلت آية المواريث في سورة النّساء شقّ ذلك على النّاس وقالوا : يرث الصّغير الذي لا

---

(١) صحيح البخاريّ ٦/٦١ .

(٢) العذق بفتح العين النّخلة بحملها وبكسر العين هو العنقود من العنب .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٦١ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٥/١٩١ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٥/١٩١ .

(٦) تفسير الطّبريّ ٥/١٩١ .

يعمل في المال ولا يقوم فيه ، والمرأة التي هي كذلك فيرثان كما يرث الرّجل الذي يعمل في المال ، فرجوا أن يأتي في ذلك حدثٌ من السّماء فانتظروا فلمّا رأوا أنّه لا يأتي حدثٌ قالوا : لئن تمّ هذا إنّه لواجبٌ ما منه بدّ ، ثمّ قالوا : سلوا فسألوا النّبيّ ﷺ فأنزل الله : ويستفتونك في النّساء ، قل الله يفتيكم فيهنّ وما يتلى عليكم في الكتاب ، في أوّل السّورة ، في يتامى النّساء اللّاتي لا تؤتونهنّ ما كتب لهنّ وترغبون أن تنكحوهنّ[1] .

وقال آخرون بل معنى ذلك : ويستفتونك في النّساء ، قل الله يفتيكم فيهنّ وفيما يتلى عليكم في الكتاب ، يعني في أوّل هذه السّورة وذلك قوله : وإن خفتم ألّا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النّساء[2] وقد روي هذا عن عائشة رضي الله عنها[3] .

وترغبون أن تنكحوهنّ : وترغبون عن نكاحهنّ[4] .

والمستضعفين من الولدان : وفي المستضعفين من الولدان[5] كانوا في الجاهليّة لا يورّثون الصّغار ولا البنات[6] .

وأن تقوموا لليتامى بالقسط : بالعدل[7] .

ويسألونك يا محمّد الفتيا ويطلبون منك أن تخبرهم وتفتيهم في شأن النّساء وميراثهنّ قل يا محمّد الله يفتيكم فيهنّ وفيما يتلى عليكم في الكتاب وفي يتامى النّساء ، وقد قال عزّ من قائل[8] : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدّلوا الخبيث بالطّيّب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنّه كان حوباً كبيراً . وإن خفتم ألّا تقسطوا في اليتامى فانكحوا من طاب لكم من النّساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألّا تعدلوا ﴾ إنّ اليتيمة تكون في حجر أحدكم ويرغب في أن يتزوّجها فعليه أن يدفع لها مهرها أسوةً بأمثالها من النّساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النّساء ، وفي كلّ حالٍ تعطى اليتيمة ما قسم الله تعالى لها من ميراث ، فحذار من الحيف بها والجور على مالها . وهذه المعاني هي التي أشار إليها أوّل السّورة . أمّا هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها ففيها الحديث عن يتامى النّساء اللّاتي لهنّ مال ولكنّهنّ دميمات ، فثمّة رغبة في ما لهنّ ورغبةٌ عن الزّواج بهنّ ومنعٌ لهنّ عن أن يتزوّجن طمعاً في ذلك المال . إنّ الآية الكريمة تنهى عن

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٩٢/٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٩٣/٥ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٩٣/٥ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٩٥/٥ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٩٥/٥ .
(٦) تفسير ابن كثير ٥٦١/١ وتفسير الطّبريّ ١٩٥/٥ .
(٧) تفسير الطّبريّ ١٩٦/٥ .
(٨) سورة النّساء ٢ ، ٣ .

هذا الذّنب الكبير والعمل القبيح . كما يُفتي الله سبحانه وتعالى عباده في المستضعفين من الولدان بأن يعطوا كلّ ذي حقٍّ حقّه من الميراث ، كما يفتي الله سبحانه وتعالى أولياء اليتامى بأن يقوموا لهنّ بالعدل وأن يعملوا كلّ ما فيه صلاحهنّ بالقسط .

وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها أنّ كلّ ما يفعل العباد من خير ، سواءٌ كان صغيراً أو كبيراً ، فإنّ الله سبحانه وتعالى كان به عليماً .

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

سبب النّزول :

في الصّحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : لمّا كبرت سودة بنت زَمْعَة[1] وهبت يومها لعائشة ، فكان النّبيّ ﷺ يقسم لها بيوم سودة[2] قالت عائشة : ففي ذلك أنزل الله : وإن امرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً[3] .

من بعلها : من زوجها[4] .

نشوزاً : استعلاءً بنفسه عنها إلى غيرها أثرةً عليها[5] .

وأحضرت الأنفس الشّحّ : الشّحّ الإفراط في الحرص على الشّيء[6] عن ابن عبّاس : وأحضرت الأنفس الشّحّ : قال : نصيبها منه[7] وجاء في الجلالين : « وأحضرت الأنفس الشّح : شدّة البخل ، أي جبلت عليه ، فكأنّها حاضرته لا تغيب عنه . المعنى أنّ المرأة لا تكاد تسمح بنصيبها من زوجها ، والرّجل لا يكاد يسمح عليها بنفسه إذا أحبّ غيرها » .

تتحدّث الآية الكريمة عن حالٍ من أحوال النّساء حينما يكون النّشوز من الزّوج

---

(١) زمعة بسكون الميم وفتحها كما في القاموس .
(٢) تفسير ابن كثير ٥٦٢/١ .
(٣) تفسير ابن كثير ٥٦٢/١ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٩٦/٥ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٩٦/٥ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٢٠٠/٥ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٢٠٠/٥ .

والتّرفع منه ، وحينما يكون الإعراض بالوجه أو القلب وما إلى ذلك من قبل البعل وتخاف المرأة من كلٍّ من هذه الحالات وترغب في وضع حدٍّ لها ، ففي هذه الحال ترشد الآية الكريمة إلى عملٍ مشترك بين الزّوجين لا حرج عليهما في القيام به ولا إثم ألا وهو أن يصلحا بينهما صلحاً ، بأن تتنازل المرأة عن حقّها أو بعضه من قَسْم (مبيت) أو نفقةٍ أو كسوة أو ما شاكل ذلك مقابل استمرار العلاقة الزّوجيّة . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الصّلح خيرٌ وأفضل من الطّلاق أو النّشوز أو الإعراض ، وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجة أنّ رسول الله ﷺ قال : أبغض الحلال إلى الله الطّلاق[1] وقد عرفنا أنّ سودة بنت زمعة لمّا أسنّت وخافت أن يفارقها المصطفى ﷺ وحرصت على أن تحشر ضمن زوجاته عليه الصّلاة والسّلام تنازلت عن يومها لعائشة رضي الله عنها لما علمت من حبّه عليه الصّلاة والسّلام للسّيّدة عائشة رضي الله تعالى عنهنّ أجمعين .

وتقرّر الآية الكريمة الشّحّ ، وهو شدّة البخل ، الذي فطر عليه الإنسان ، وبخاصّةٍ الزّوجان ، فكأنّ النّفس حاضرته ولا تغيب عنه أو كأنّ الشّحّ حاضرها ولا يغيب عنها . إنّ الزّوجة مثلاً تضنّ بحقوقها الزّوجيّة وتشحّ بها ولولا خوف الفراق لما تنازلت عن شيءٍ من حقوقها ، وإنّ الزّوج وقد انصرف قلبه إلى أخرى لا يكاد يسمح على الزّوجة الأولى بنفسه .

وفي الآية الكريمة حثٌّ على الإحسان والتّقوى ، ومع صحّة انصرافه إلى كلٍّ من الزّوجين ، فإنّ انصرافه أكبر إلى الزّوج لأنّ النّشوز أو الإعراض من قبله . فالمطلوب من الزّوج مقابل كلٍّ من النّشوز والإعراض كلٌّ من الإحسان والتّقوى ، أن يحسن معاملة زوجه ، وأن يتّقي الله تعالى في معاملتها . كما تقرّر الآية الكريمة علم الله سبحانه وتعالى بعمل كلّ إنسانٍ وبخاصّةٍ الزّوجان ، وسيثيب أو يعاقب كلاً بعمله . فعلى النّاس كلّ النّاس أن يحسنوا وأن يتّقوا ، وبخاصّة الأزواج : أي إن تحسنوا وتتّقوا في عشرة النّساء بإقامتكم عليهنّ مع كراهتكم لصحبتهنّ واتقاء ظلمهنّ فهو أفضل لكم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٦٣/١ .

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

تخاطب الآية الكريمة الأزواج بأنّهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النّساء ولو حرصوا ، بمعنى أنّ من كان لديه أكثر من زوجة فإنّه لن يستطيع أن يعدل بينهنّ في الحبّ ويسوّي بينهنّ في ميل القلب وإن كان الزّوج حريصاً على أن يعدل بين زوجاته ظاهراً من حيث القَسْم والنّفقة والمعاملة وما إلى ذلك . وبما أنّ ميل القلب إلى إحدى الزّوجات قد يكون فطريًّا ولا يستطيع الزّوج أن يتحكّم فيه أو يصرفه ، وقد عفا الله سبحانه وتعالى عمّا في القلب من ميلٍ أكثر إلى زوجةٍ مّا ، وفي النّفس من هوىً أكبر ، فإنّ الآية الكريمة تنهي بشدّة الأزواج أن يميلوا كلّ الميل وينصرفوا بكلّ قلوبهم وعواطفهم إلى من مال إليها القلب ويردفوا ذلك بالميل فيما لهم عليه سلطة وقدرة من قسمٍ ونفقةٍ وكسوةٍ وما إلى ذلك . وتبيّن الآية الكريمة الحكمة من هذا النّهي الشّديد : « فتذروها كالمعلّقة » بمعنى أنّ الزّوجة التي مال عنها زوجها بالكلّيّة تكون في مثل حال المرأة التي لا هي ذات زوج ولا هي أيّم[1] .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ الأزواج إن أصلحوا من أحوالهم ومن معاملتهم لزوجاتهم اللّاتي مالت عنهنّ قلوبهم ولم يتجاوزوا ما عفا الله تعالى عنهم من ميلٍ فطريّ من القلب لإحدى الزّوجات ، واتّقوا الله سبحانه وتعالى بالعدل في المعاملة وعدم الحيف وإلحاق الظّلم بإحدى الزّوجات فإنّ الله سبحانه وتعالى كان هو الغفور لكلّ ذنب ، ومن ذلك الميل ، وهو الرّحيم بكم الذي خفّف عنكم وهداكم إلى معالم دينه .

روى الإمام أحمد وأهل السّنن عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثمّ يقول : اللّهمّ هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تلمني فيما تلمك ولا أملك . يعني القلب[2] وروى الإمام أحمد وأهل السّنن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقّيه ساقط[3] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/٢٠١ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٦٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٦٤ .

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

الزّوجة التي مال قلب زوجها عنها لأخرى إن لم تصطلح مع زوجها بالتّنازل عن بعض حقّها وأبت إلّا أن تنال حقّها كاملاً أو شبه كامل ، والزّوج إن لم يستطع أن يحسن وأن يصلح كما أمرت الآيتان الكريمتان السّابقتان أو خاف أن يميل كلّ الميل فافترقا بالطّلاق ، فإنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يغني كلاً من الزّوجين من واسع فضله ، بأن يهيّىء لكلٍّ منهما زوجاً خيراً من سابقه وأن يغنيهما بحلاله جلّ وعلا عن حرامه . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى واسع الفضل والرّحمة والرّزق وكلّ خير ، حكيمٌ في كلّ أقواله وأفعاله وأحكامه وأقداره لا إله غيره ولا ربّ سواه .

وَلِلَّهِ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾

إذا كانت الآية الكريمة السّابقة قد قرّرت إحدى الحالات التي قد ينتهي إليها الزّوجان وهي حالة الطّلاق ، وإذا كان هذا الطّلاق الحلال البغيض إلى الله تعالى رغم إحلال الله تعالى له ، سبباً في الكثير من الحزن والأسى لأحد الزّوجين غالباً أو لكليهما ، فإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تعيّن الملجأ الذي ينبغي أن يلجأ إليه المضطّر ويلوذ به ، إنّه خالق هذا العبد والذي له ما في السّماوات وما في الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً ، والقادر على كلّ شيء ، ومن ذلك إبدال وحشة الزّوج أنساً وأساه وحزنه فرحاً وسروراً ، بشراً وحبوراً .

وإذا كانت آيتان كريمتان سابقتان متتابعتان قد أمرتا الزّوجين بالتّقوى مع كلٍّ من الإحسان والإصلاح ، فإنّ الأمر بتقوى الله تعالى قد وصّى به وأمر كلّ عباده من أهل الكتاب ، التّوراة والإنجيل ، وأهل القرآن الكريم أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ . بل إنّ الله تعالى أمر به كلّ النّاس على غرار ما جاء في أولى آيات هذه السّورة الكريمة : ﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم ﴾ بل أمر به حبيبه محمّداً ﷺ على غرار ما جاء في أولى آيات سورة الأحزاب : ﴿ يا أيّها النّبيّ اتّق الله ﴾ .

إنّكم أيّها الأزواج ، بل إنّكم يا من أكرمكم الله بكتاب سماويّ ، قد وصّاكم الله تعالى وأمركم أن تتّقوه جلّ وعلا ما استطعتم ، وقد قال تعالى[1] : ﴿ ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وإن تكفروا فاعلموا أنّ لله تعالى ما في السّماوات وما في الأرض ، وكان الله سبحانه وتعالى هو الغنيّ وهو الحميد . إنّه جلّ وعلا غنيّ عن سائر الخلق غنيٌّ عن تقواكم ، وإنّه جلّ وعلا هو المحمود على كلّ أقواله وأفعاله وشرعه وسائر أقداره .

ويلاحظ مجيء القول : ﴿ لله ما في السّماوات وما في الأرض ﴾ مرّتين اثنتين في الآية الكريمة ، ومرّةً من قبل وذلك في الآية الكريمة السّادسة والعشرين بعد المائة ، أي قبل أربع آيات كريمات ، ومرّةً رابعةً في الآية الكريمة التّالية ، وكلّ ذلك دليلٌ على أهمّيّة القضايا التي يجيء في أثنائها التّنبيه إلى ملك الله تعالى ما في السّماوات وما في الأرض ، ومن هذه القضايا التّنويه بدين الإسلام وبرفيع منزلته على سائر الأديان على نحو ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً واتّخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ ومنها قضايا المرأة التي عنيت بها الآيات الكريمات بعد ذلك . إنّ على الرّجال الذين فُهِم من السّياق أنّهم في مواطن القدرة والقوّة أن يعلموا أنّهم دائماً وأبداً هم الفقراء إلى الله سبحانه وتعالى الغنيّ الحميد فليتّقوا الله تعالى في النّساء وليستوصوا بهنّ خيراً . فإلى الآية الكريمة التّالية .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

إنّ لله سبحانه وتعالى ما في السّماوات وما في الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً ، وكفى بالله وكيلاً ، قائماً على كلّ نفسٍ بما كسبت ، حفيظاً رقيباً حسيباً . لقد ختمت الآية الكريمة السّابقة بالقول : ﴿ وكان الله غنيًّا حميداً ﴾ إثر الأمر بالتّقوى ، فالله سبحانه وتعالى هو الغنيّ عن عباده المحمود ، وختمت هذه الآية الكريمة بالقول : ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ وفي هذا تقرير زيادةٍ مترتّبةٍ على الاستغناء عن العباد ، وهذه الزّيادة أو الإضافة هي حفظه جلّ وعلا ورعايته لهذا الكون وما فيه ومن فيه ، ومن بين هؤلاء جنس الإنسان الذي حمل الأمانة ﴿ إنّه كان ظلوماً جهولاً ﴾[2] .

---

(١) سورة الطّلاق ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الأحزاب ٧٢ .

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

تحدّثت الآية الكريمة قبل السّابقة عن التّقوى ، وختمت بالإشارة إلى غنى الله تعالى عن العباد ، وتحدّثت الآية الكريمة التّالية عن ملك الله تعالى للسّماوات والأرض وما فيهنّ وختمت بالإشارة إلى حفظ الله تعالى لهذا الملكوت ورعايته له . وهذه الآية الكريمة التي نحن بصددها تعمّق كلاً من الغنى ومن القدرة المفهومة ضمناً من حفظ الله تعالى لهذا الملكوت وكلاءته له ، فتبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى الغنيّ عن خلقه القادر على كلّ شيء ، إن يشأ يذهبكم أيّها النّاس المكلّفون بفعل الطّاعات ، عن طريق إهلاككم وإبادتكم لأنّكم لم تحقّقوا الهدف الذي خلقتكم من أجله وهو عبادتي وحدي لا شريك لي فعلت ذلك واستبدلت بكم قوماً آخرين ثمّ لن يكونوا أمثالكم . إنّ القدرة المفهومة في الآية الكريمة السّابقة وفي صدر هذه الآية الكريمة يعمّقها هذا التّذييل : ﴿ وكان الله على ذلك قديراً ﴾ وكان الله على ذلك الاستبدال قديراً ، هكذا في صيغة المبالغة فما أهون ذلك على الفعّال لما يريد الذي إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون . وفحوى هذه الآية الكريمة جاء في مواضع عدّة في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى في سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام[1] : ﴿ وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقوله تعالى في سورة فاطر[2] : ﴿ يا أيّها النّاس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيّ الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلقٍ جديد ، وما ذلك على الله بعزيز ﴾ .

ويصحّ أن يفهم الاستبدال في ضوء قوله تعالى في سورة الأنعام[3] : ﴿ وكذلك نولّي بعض الظّالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ فالله سبحانه وتعالى يولّي بعض الظّالمين على بعض ويسلّط على القويّ منهم الأقوى منه . وهكذا . وفي ضوء مثل قوله تعالى في سورة الأنعام[4] كذلك : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون ﴾ .

---

(١) الآية ٣٨ .

(٢) الآيات ١٥ - ١٧ .

(٣) الآية ١٢٩ .

(٤) الآية ٦٥ .

مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

من النّاس من لا يفكّر إلّا في الحياة الدّنيا ولا يهتمّ إلّا بها ولا يعمل إلّا من أجلها بل إنّه ربّما لا يسأل الله تعالى إلّا الخير في الدّنيا ، وإلى هذا الفريق من النّاس أشار مثل قوله تعالى[1] : ﴿ فمن النّاس من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا وما له في الآخرة من خلاق ﴾ ومن النّاس من يسأل الله تعالى خيري الدّنيا والآخرة لأنّهم على علمٍ بأن الله سبحانه وتعالى عنده وحده ثواب الدّنيا والآخرة ، وإلى هذا الفريق من النّاس أشار مثل قوله تعالى[2] : ﴿ ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النّار ﴾ ويلاحظ بشأن طلب الفريق الأوّل إيتاءه في الدّنيا أنّه لم تأت لفظة حسنة ، دليلاً على أنّ كلّ ما في هذه الحياة الأولى من خيرٍ ونعيم إن لم يكن صاحبه موصولاً بالله تعالى فلا فائدة في ذلك الخير ولا جدوى من ذلك النّعيم .

والآية الكريمة التي نحن بصددها تنظر إلى حال طالب الدّنيا وثوابها من زاويةٍ أخرى ، وكأنّها تقول لطالب الدّنيا والحريص على ثوابه العاجل فيها ، إنّك على علمٍ بأنّ ثواب الدّنيا الذي تحرص عليه إنّما هو من الله تعالى وحده لا شريك له ، وإن لم تكن على علمٍ بذلك فعليك أن تعلم ، فلماذا أنت ضعيف الهمّة ، حينما تطلب ثواب الدّنيا تغفل عن الجانب الحسن من هذا الثّواب بأن يكون إحدى جوانب الحياة الطّيّبة في الأولى للمتّقين ، ولماذا أنت قليل العلم أو ضعيف الذّاكرة ، فلا تتّجه إلى بارئك الذي عنده مفاتيح الغيب وكأنّه قد تسرّب إليك شيءٌ من الظّنّ الذي سبق إلى رُوع قارون بأنّ ما عنده من مالٍ إنّما أوتيه على علمٍ عنده .

على أنّ ضعف همّتك وعدم علمك إنّما يتجلّى كلّ منهما في أقبح الصّور وأبشع المناظر حينما لا تسأل الله سبحانه وتعالى في الآخرة حسنة ، امتداداً لسؤالك الله تعالى في الدّنيا .

إنّ عليك أيّها الإنسان أن تعلم أنّ عند الله تعالى وحده لا شريك له ثواب الدّنيا والآخرة ، الحياة الطّيّبة في الأولى والآخرة ، فعليك حينما تسأل أن تسأل الله تعال وحده لا

---

(١) سورة البقرة ٢٠٠ .

(٢) سورة البقرة ٢٠١ .

شريك له ، وعليك حينما تطلب أن تكون كبير الهمّة فتطلب من الله تعالى أن يؤتيك حسن ثواب الأولى والآخرة . إنّ الله سبحانه وتعالى سميعٌ لكلّ دعاء وقولٍ وصوت ، بصيرٌ بكل من يريد في الدّنيا وَحْدَها أن يؤتَى ، ومن يريد أن يؤتى في الدّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنة وأن يقيه الله جلّ وعلا عذاب النّار ﴿ كلاً نُمِدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك ، وما كان عطاء ربّك محظوراً ﴾[1] .

(١) سورة الإسراء ٢٠ .

كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ

وَءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

الآية : ١٣٥ ، ١٣٦

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

بالقسط : بالعدل[1] والشّهداء جمع شهيد[2] .

فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا : أي عن الحقّ فتجوروا بترك إقامة الشّهادة بالحقّ . ولو وجّه إلى أنّ معناه : فلا تتّبعوا أهواء أنفسكم هرباً من أن تعدلوا عن الحقّ في إقامة الشّهادة بالقسط كان وجهاً[3] .

وأن تلووا أو تعرضوا : عن مجاهد : وإن تلووا ، قال : بتبديل الشّهادة والإعراض كتمانها[4] .

تبيّنّا من ذي قبل أنّ للملابسات التي أحاطت بخيانة طعمة بن أبيرق ومحاولة قومه بني ظفر تبرئة ساحته أمام المصطفى ﷺ والمؤمنين دوراً في المعاني التي تضمّنتها الآيات الكريمات التي نزلت في تلك المناسبة وملابساتها ، والآيات الكريمات التّالية . ولمّا كانت تلك الخيانة وملابساتها ذات علاقة بالحكم الذي ينبغي أن يكون عادلاً بعيداً عن الأهواء ومن ذلك أهواء قوم طعمة ، فقد تحدّثت هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها في أمرٍ غايةٍ في الأهمّيّة بشأن أيّ حكم ألا وهو الشّهادة بأنواعها المختلفة .

والآية الكريمة تخاطب الذين آمنوا باعتبارهم الثّمرة اليانعة النّاضجة لمنهج التّربية القرآنيّة وتأمرهم بأن يكونوا قوّامين بالقسط ، قائمين كلّ مرّةٍ بالعدل ، شهداء ، هكذا في صيغة جمع فعيل ، وليس شهوداً في صيغة جمع شاهد ، وشهيد أبلغ من شاهد لأنّه الذي يكون محيطاً بكلّ دقائق المسألة التي أدلى بالشّهادة بشأنها لأنّه كان شهيدها وحاضرها . وهذا النّوع من الشّهادة البالغة الدّقّة والإحاطة إنّما يقوم بها الذين آمنوا لله ، ويدلون بها ابتغاء مرضاة الله تعالى ، ولو كانت تلك الشّهادة على أنفسهم ، وذلك بالاعتراف بما لخصمهم عليهم ، أو على الوالدين والأقربين ، فضلاً عمّن يبتعد عن النّفس

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/٢٠٦ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥/٢٠٦ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٥/٢٠٧ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٥/٢٠٨ .

والوالد والأقرب . ولعلّنا تبيّنا التدرّج اللّطيف في البعد عن الذّات إلى الوالدين إلى الأقربين فالقريبين وهكذا .

إنّ الشّهادة ينبغي أن تؤدّى كاملةً وصحيحةً لله تعالى وحده لا شريك له ، فعلى الشّاهد ألّا يحابي غنيًّا لغناه طمعاً في شيءٍ من حطام الدّنيا ، ولا فقيراً مراعاةً لفقره أو رحمةً به وشفقةً عليه . إنّ الله سبحانه وتعالى الرّءوف الرّحيم الذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ هو الأولى منك أيّها الشّاهد بكلٍّ من الغنيّ والفقير وأعلم بمصالحهما ، وإنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يأمرك بأن تعدل في شهادتك كي يقوم الحقّ . فعليك أيّها الشّاهد ألّا تتّبع الهوى فتعدل عن الحقّ ، وألّا تتّبع الهوى فيمنعك عن العدل ويحول بينك وبين الحكم بما أنزل الله تعالى .

إنّ اتّباع الهوى يؤدّي بالشّاهد إلى أن يبدّل الشّهادة أو يأتي بها على غير وجهها الصّحيح وإلى الإعراض عن الإدلاء بالشّهادة وكتمانها . وفي كلّ ذلك ارتكابٌ لذنبٍ عظيم لأنّه يؤدّي إلى ضياع الحقوق وإلى رسوخ الظّلم وإلى عدم القيام بالقسط ، وقد قال تعالى[1] : ﴿ ولا تكتموا الشّهادة ومن يكتمها فإنّه آثمٌ قلبه ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تهدّد في تذييلها الذين ينحرفون بالشّهادة عن وجهها والذين يكتمونها وتنذرهم وذلك بتذكيرهم بأنّ الله سبحانه وتعالى خبيرٌ بما يعملون في مجال الشّهادة وفي مجال غيرها ، لا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، وسيجازي كلاًّ بناءً على نيّته وعمله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

على غرار الآية الكريمة السّابقة التي خاطبت الذين آمنوا تخاطب الآية الكريمة المؤمنين بالله تعالى المصدّقين لله ورسوله بأن يؤمنوا أكثر بالله تعالى ويزدادوا إيماناً مع إيمانهم

---

(١) سورة البقرة ٢٨٣ .

وأن يؤمنوا برسوله محمّد ﷺ وبالقرآن الكريم الذي نزّله جلّ وعلا منجّماً عليه ﷺ وبجنس الكتب التي أنزلها الله سبحانه وتعالى جملةً واحدة على الرّسل السّابقين . إنّ الإيمان المطلوب ، كما يقول ابن كثير[1] ليس من باب تحصيل الحاصل بل من باب تكميل الكامل .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً وخرج عن الصّراط المستقيم وشطّ عن المنهاج القويم . وتذكّرنا الآية الكريمة بقوله عزّ من قائل في آية البرّ أو الإيمان من سورة البقرة[2] : ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنّبيّين ﴾ ومعروف أنّ هذه الأركان قوام الإيمان .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٦٦/١ .

(٢) الآية ١٧٧ .

من صفات المنافقين
ووجوب الحذر منهم
الآيات : ١٣٧ - ١٤٧

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾

أمرت الآية الكريمة السّابقة المؤمنين بأن يسعوا لزيادة الإيمان وكماله . وهذه الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن فريقٍ عمل بعكس ما أمر به فبدلاً من أن يزداد إيمانه أو يكمل ، بل أن يبقى على حالةٍ واحدة ، نقص ذلك الإيمان حتّى ارتدّ – والعياذ بالله – كافراً . ثمّ عاود الكرّة فآمن ثمّ كفر . بل إنّه ازداد سوءًا فقد ازداد كفراً حتّى توفّاه الله تعالى كافراً بالله وبرسوله وبأركان الإيمان الباقية . إنّ هذا الفريق من النّاس الذين عملوا عكس ما أمروا به هو فريق المنافقين .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ المنافقين الذين يموتون وهم كفّار ولم يتوبوا رغم كونهم قد ذاقوا مرّةً أو أكثر من مرّةٍ حلاوة الإيمان ، لم يكن الله سبحانه وتعالى ليغفر لهم ذنوبهم لأنّهم ارتكبوا الذّنب الذي لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جلّ وعلا غيره ، ولم يكن الله سبحانه وتعالى ليهديهم سبيلاً بعد أن ارتدّوا عن ذلك السّبيل الذي هداهم الله تعالى إليه من قبل مرّةً ومرّةً فأصرّوا على هجر الصّراط المستقيم وترك الإيمان والارتداد عن دين الإسلام الذي رضيه الله تعالى لعباده . إنّهم وقد آثروا الضّلالة بدل الهدى وبَعْدَ الهدى زادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم وعمى بصيرةٍ إلى عماهم . ﴿ ولا يظلم ربّك أحداً ﴾[1] .

بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

وصفت الآية الكريمة السّابقة المنافقين بأبرز صفاتهم وبيّنت أنّهم بسبب موتهم على الكفر لن يغفر الله تعالى لهم . وهذه الآية الكريمة الأولى التّالية ﴿ بشّر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً ﴾ تذكر المنافقين بصريح اللّفظ ، وفي معرض تبكيتهم والاستهزاء بهم تأمر المصطفى ﷺ بأن يبشّرهم بأنّ لهم يوم القيامة عذاباً أليماً ، وربّما سبق عذابَ يوم القيامة عذابٌ في هذه الحياة الأولى . والمراد بالقول : « وبشّر » أخبرهم بما يكون له أثرٌ بادٍ على بشرتهم . ولمّا كان العذاب الأليم هو المبشّر به كان الأثر الذي يبدو على بشرتهم سيّئاً .

---

(١) سورة الكهف ٤٩ .

ولمّا كان الغالب على البشارة والتّبشير أنّهما إنّما يكونان في الخير ، كان التّبشير للمنافقين بالعذاب الأليم من قبيل الاستهزاء والسّخرية بهم .

وتبيّن الآية الكريمة الثّانية مظهراً من أهمّ أعمال المنافقين السّيّئة باطناً ، وسبباً من أهمّ الأسباب التي استحقّوا العذاب الأليم بموجبها . وهذا السّبب هو أنّهم يتّخذون الكافرين أولياء في الباطن وأصدقاء في الخفاء وأخلّاء إذا خلوا بهم من دون المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ .

وفي هذا السّؤال الإنكاريّ : « أيبتغون عندهم العزّة » ؟ تبيينٌ للسّبب الذي من أجله اتّخذ المنافقون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . إنّهم يبتغون عند الكافرين العزّة والمنعة والقوّة والحماية . وما كان لشيءٍ من ذلك ليتمّ لولا ضعف إيمان المنافقين للدّرجة التي يتّخذون معها عدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ المؤمنين أولياء يلقون إليهم بالمودّة التي يُسِرّون إليهم بها . إنّ المنافقين على جهل بمثل قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ من كان يريد العزّة فللّه العزّة جميعاً ﴾ وبمثل قوله تعالى[2] : ﴿ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون ﴾ وقد جاء في ولاية المنافقين اليهود والنّصارى قوله تعالى[3] : ﴿ فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيُصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين ﴾ .

إنّ هذه الآية الكريمة الثّانية من سورة النّساء تبيّن أنّ المنافقين أولياء الكافرين وإخوانهم ، وأنّ قلوبهم مع الكافرين ضدّ المؤمنين ، فعلى المؤمنين أن يأخذوا حذرهم .

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

نزّل الله سبحانه وتعالى على حبيبه المصطفى ﷺ في سورة الأنعام المكّيّة قوله عزّ

---

(١) سورة فاطر ١٠ .

(٢) سورة المنافقون ٨ .

(٣) سورة المائدة ٥٢ .

من قائل[1] : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتّى يخوضوا في حديثٍ غيره . وإمّا يُنْسِينّك الشّيطان فلا تقعد بعد الذّكرى مع القوم الظّالمين . وما على الذين يتّقون من حسابهم من شيءٍ ولكن ذكرى لعلّهم يتّقون ﴾ ومع أنّ الخطاب له عليه الصّلاة والسّلام فإنّ المقصود أمّته ﷺ وبخاصّة الصّحابة رضوان الله عليهم الذين أمروا بألّا يقعدوا مع كفّار مكّة الخائضين في آيات الله تعالى المستهزئين بها . وإلى هاتين الآيتين الكريمتين أشارت الآية الكريمة من سورة النّساء . وسبق أن بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ المنافقين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . وهذا معناه أنّ المنافقين تجاوزوا نهي الله تعالى بمجرّد القعود مع الكافرين المستهزئين بآيات الله تعالى إلى اتّخاذهم أولياء من دون المؤمنين . إنّ المؤمنين إذا كانوا قد امتثلوا أمر الله تعالى بأنّهم إذا سمعوا آيات الله تعالى يكفر بها ويستهزأ بها فعليهم ألّا يقعدوا معهم حتّى يخوضوا في حديثٍ آخر غير آيات الله تعالى البيّنات الموحى بها إلى خاتم النّبيّين ﷺ ، وإلّا كانوا مثلهم في الذّنب وفي الصّفات ، فإنّ المنافقين لم يمتثلوا ذلك الأمر ، بل تجاوزوه كما تبيّن إلى اتّخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين . وبما أنّ المنافقين إخوان الكافرين في الدّنيا في كره الإسلام والمسلمين والتّعاون على الإثم والعدوان فإنّ عقابهم يوم القيامة أن يجمع الله تعالى في جهنّم بين الفريقين المنافقين والكافرين .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تقدّم المنافقين في الذّكر دليلاً على تقدّمهم الكافرين في دخول جهنّم وعلى أنّهم في الدّرك الأسفل منها . كما يلاحظ أنّ الآية الكريمة تنهي عن القعود مستعملةً جملة « فلا تقعدوا » التي تدلّ على اتّجاه حركة القاعد من أعلى إلى أسفل وليس جملة « فلا تجلسوا » التي تدلّ على الحركة المعاكسة ، وكأنّ الآية الكريمة تنهي عن مجرّد الاجتماع في مجلسٍ واحدٍ مع هؤلاء الكافرين المستهزئين . إنّ أيّ رغبةٍ في القعود مع هؤلاء القوم ينبغي على المؤمنين أن يئدوها فوراً لأنّ القاعد مع المستهزئين لا ينال إلّا شرًّا ولا يكسب إلا إثماً .

---

(١) الآية ٦٨ ، ٦٩ .

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

الذين يتربّصون بكم : الذين ينتظرون أيها المؤمنون بكم[1] .

ألم نستحوذ عليكم : أصل الاستحواذ في كلام العرب الغلبة ، ومنه قول الله جلّ ثناؤه : استحوذ عليهم الشّيطان فأنساهم ذكر الله ، بمعنى غلب عليهم[2] فالمعنى : ألم نغلب عليكم[3] ونستول عليكم[4] .

قرّرت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى سيجمع يوم القيامة بين المنافقين والكافرين في جهنّم ، وتقدّم في الذّكر المنافقون لاشتراكهم مع الكافرين في صفة الكفر ، وزيادتهم عليهم إظهار خلاف ما يكتمون وإعلان غير ما يسرّون ، ومن ذلك تربّص الدّوائر بالمؤمنين ، وإلى هذا التّربّص أشارت هذه الآية الكريمة التي تقرّر أنّ المنافقين يتربّصون بالمؤمنين دوائر السّوء وينتظرون بفارغ الصّبر وعميق الأماني أن تكون الدّائرة للكافرين على المؤمنين . هذا فيما يتّصل ببواطن المنافقين وأسرارهم التي لا يعلّمها إلّا الله تعالى عالم السّرّ وأخفى . أمّا فيما يتّصل بظاهر المنافقين فإنّهم يريدون أن يأمنوا كلاًّ من المؤمنين والكافرين ، وبما أنّ النّصر ينبغي أن يكون لأحد الفريقين لذا هم يلعبون – كما يقال – على الحبلين .

إنّ المؤمنين إذا كان فتحٌ من الله تعالى ، ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل في حقّ المؤمن لفظ الفتح دليلاً على النّصر والغنيمة وما إليهما ، وتجعل هذا الفتح من الله تعالى ، فما النّصر إلّا من عند الله ، قال المنافقون للمؤمنين : ألم نكن معكم في المعركة بأجسادنا وقلوبنا وإيماننا وفي غير المعركة بقلوبنا وإيماننا . أمّا إذا كان للكافرين نصيب ، ويلاحظ أنّ

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/٢١٣ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٥/٢١٣ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٥/٢١٣ .

(٤) الجلالين .

الآية الكريمة تستعمل في حقّ الكافرين لفظ النّصيب ، بمعنى الحظّ ، وتسكت عن مصدر هذا الحظّ ، حقًّا إنّ هذا النّصيب ابتلاءٌ من الله تعالى للمؤمنين ومدٌّ للكافرين في طغيانهم ، ولكنّ الآية الكريمة تسكت عن ذلك دليلاً على عدم الرّضا عن هؤلاء الكافرين ، وعلى أنّ للشّيطان الرّجيم وللنّفس الأمّارة بالسّوء نصيباً من ذلك العمل ، أمّا إذا كان للكافرين نصيبٌ فإنّ المنافقين يقولون للكافرين الذين يسرّون إليهم بالمودّة : ألم نستحوذ عليكم ونحن في الظّاهر مع المؤمنين ، ونغلب عليكم وقد كثّرنا سواد المسلمين ، ونستول عليك وأنتم لا طاقة لكم بالمؤمنين وبنا نحن المنافقين ! ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ونصرف المؤمنين عن قتالكم بتخذيلهم والفتّ في عضدهم وتهويل شأنكم أو تهوينه ! إنّ المنافقين يريدون الثّمن في كلٍّ من الحالتين انتصار المؤمنين أو الكافرين .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يحكم يوم القيامة بينكم أيّها المؤمنون وبين المنافقين الذين يظهرون لكم المودّة ويبطنون العداوة .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى لن يجعل في هذه الحياة الدّنيا ، ومن باب الأولى في الآخرة ، للكافرين بنوعيهم ، على المؤمنين سبيلاً ، حجّةً وسلطاناً وغلبةً . المهمّ أن يكون المؤمنون مؤمنين حقًّا . أمّا إذا حدث وقتاً من الأوقات للمؤمنين شيءٌ غير هذا فعلى المؤمنين أن يصلحوا من خللهم حتّى يعودوا مؤمنين حقًّا ويتحقّق وعد الله تعالى ووعده الحقّ جلّ وعلا .

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة حقيقة خداع المنافقين للمؤمنين بإظهارهم خلاف ما يبطنون وموالاتهم للكافرين . وهذه الآية الكريمة التّالية تبيّن حقيقة الباعث للمنافقين على الوقوف من المؤمنين هذا الموقف العجيب . إنّ المنافقين في الحقيقة إنّما يخادعون الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى هو خادعهم . وإنّ هذا المعنى يذكّرنا بما جاء في أوّل السّورة الكريمة . قال تعالى[1] : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلّا أنفسهم وما يشعرون ﴾ والذي يلفت الانتباه هنا اختلاف التّعبيرين : « إنّ المنافقين يخادعون الله » والمعروف أنّ الفعل المضارع يدلّ على تجدّد الفعل واستمراره . أمّا هذا التّعبير عن الذّات العليّة : « وهو

(١) سورة البقرة ٩ .

خادعهم » بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى خادعٌ المنافقين في الحقيقة فإنّه يتجاوز مرحلة تجدّد الفعل واستمراره إلى مرحلة دوام الفعل . وإذا كان الفعل المضارع : « يخادعون » يقف عند محاولة الخداع ولا يتجاوزه إلى تقرير النّجاح أو الإخفاق ، فإنّ اسم الفاعل في القول : « وهو خادع » يقرّر النّتيجة ويثبت أنّ عاقبة محاولة المنافقين خداع الله تعالى قد عادت إليهم وانقلبت عليهم .

وتعطي الآية الكريمة أبلغ دليل على نفاق القوم وعدم إخلاصهم العبادة لله تعالى . وهذا الدّليل متعلّق بعماد الدّين ، بالصّلاة التي هي الرّكن الثّاني بعد الشّهادتين وأهمّ أركان الإسلام بعد الشّهادتين . إنّ القوم حينما تقام الصّلاة ويكونون بين ظهراني المسلمين ومحطّ أنظارهم ولا يستطيعون الفرار ويرغمون على إعطاء الدّليل الظّاهر ، وهو الصّلاة ، على أنّهم مؤمنون حقّا ، فإنّهم يقومون إلى الصّلاة كسالى غير نشطين ولا فرحين ولا مستبشرين ولا بهجين . كلّ ذلك بعكس المؤمنين الذين يجدون راحتهم الحقيقيّة وسعادتهم وبهجتهم في إقام الصّلاة وأدائها بحقوقها وعلى وجهها .

وإذا كانوا من حيث الظّاهر يقومون للصّلاة وهم كُسالى لأنّهم مرغمون على إقامتها وإلّا لافتضحوا على رءوس الأشهاد فإنّهم من حيث الباطن لا يريدون بقيامهم إلى الصّلاة أداء هذا الرّكن ولارضاء الله تعالى ، إنّما يراءون النّاس ويظهرون للمسلمين أنّهم من أهل التّقوى وأهل الخشية كي يأمنوا على دمائهم وأعراضهم وأموالهم .

وعلى الرّغم من اضطرارهم لإقامة الصّلاة ، واضطرارهم للمراءاة وقوفاً بين يدي الله تعالى ، فإنّهم لا يذكرون الله تعالى في الصّلاة إلّا قليلاً بمقدار اضطرارهم للمراءاة بإقامة الصّلاة أمام أعين المؤمنين ، أمّا في غير الصّلاة فلا يذكرون الله تعالى أصلاً لأنّهم لا يؤمنون بالله تعالى ولا برسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

ثبت في الصّحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال : أثقل الصّلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً . ولقد هممت أن آمر بالصّلاة فتقام ثمّ آمر رجلاً فيصلّي بالنّاس ثمّ أنطلق معي برجالٍ ومعهم حزمٌ من حطب إلى قومٍ لا يشهدون الصّلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنّار[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٦٧/١ .

مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

مذبذبين : متردّدين[1] متحيّرين بين الإيمان والكفر[2] وأصل التّذبذب التّحرّك والاضطراب[3] .

بين ذلك : بين الإسلام والكفر[4] .

تقرّر الآية الكريمة الباعث الحقيقيّ للمنافقين على موالاة الكافرين باطناً وموالاة المؤمنين ظاهراً إنّه الحيرة والقلق والاضطراب وعدم الاستقرار على رأيٍ بشأن الإيمان والكفر فلهذا هم مذبذبون متحيّرون متنقّلون بين المؤمنين والكافرين ، فلا هم حقيقةً إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وبسبب قلق المنافقين نفسيًّا واضطرابهم سلوكيًّا وتقلّبهم إيمانيًّا ، رغم كون القرآن الكريم أمام أعينهم والرّسول العظيم بين ظهرانيهم ودعوة الحقّ تقرع مسامعهم وتؤرّق مضاجعهم ، وبسبب انصرافهم عن صراط العزيز الحميد واتّباعهم السُّبل التي تفرّقت بهم عن سبيله جلّ وعلا عن عمدٍ وسابق إصرار فقد استحقّوا أن يزيدهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم وعمىً إلى عمى بصائرهم فأنّى يُبْصِرون طريق الهدى . إنّ من يضلله الله تعالى ويخذله لن تجد له أيّها الإنسان سبيلاً يقوده إلى سبيل الله تعالى وإلى صراطه المستقيم ونوره المبين جلّ وعلا .

عن ابن عمر عن النّبيّ ﷺ قال : مثل المنافق كمثل الشّاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرّةً وإلى هذه مرّةً لا تدري أيّهما تتبع . تفرّد به مسلم[5] .

وروي أنّ النّبيّ ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن والمنافق والكافر كمثل رهطٍ ثلاثة دفعوا إلى نهر فوقع المؤمن فقطع ، ثمّ وقع المنافق حتّى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر أن هلمَّ إليّ فإنّي أخشى عليك وناداه المؤمن أن هلمّ إليّ فإنّ عندي وعندي يحصي له ما عنده . فما زال المنافق يتردّد بينهما حتّى أتى عليه الماء فغرّقه . وإنّ المنافق لم يزل في شكٍّ

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبريّ ٥/٢١٥ تفسير ابن كثير ١/٥٦٨ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٥/٢١٥ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٥/٢١٦ .

(٥) تفسير ابن كثير ١/٥٦٨ وتفسير الطّبريّ ٥/٢١٥ ويقال : عارت الشّاة إذا ذهبت وجاءت متردّدة .

وشبهةٍ حتّى أتى عليه الموت وهو كذلك[1] وروي أنّ نبيّ الله ﷺ كان يقول : مثل المنافق كمثل ثاغيةٍ بين غنمين رأت غنماً على نشز فأتتها فلم تعرف ثمّ رأت غنماً على نشز فأتتها وشامتها فلم تعرف[2] .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

من سمات المنافقين التّذبذب بين الإيمان والكفر ، والتّردّد بين المؤمنين والكافرين ، والتّحير بين الوقوف في صفّ المؤمنين أو صفّ الكافرين . والنّفاق وراء ذلك دركات ، ومن أسوئها وأخبثها أن يجد المنافق في قلبه ميلاً لاتّخاذ الكافرين أولياء ، ومن أكبرها وأعظمها أن يتّخذ من ينتسب إلى الإسلام من غير المؤمنين أولياء ضدّ المؤمنين . وقد جاء في سورة آل عمران[3] قوله تعالى : ﴿ لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيءٍ إلّا أن تتّقوا منهم تقاة . ويحذّركم الله نفسه . وإلى الله المصير ﴾ إنّ الشّخص الذي يجد في قلبه مثل هذا الميل أو يقدم على مثل هذا العمل الشّنيع ، كيف يوفّق بين ما يدّعيه من إيمان وبين ما يجد في قلبه من ميلٍ إلى الكافرين ، أو يترجمه من ولاءٍ إلى عملٍ وواقع ضدّ المؤمنين ، وما هو الفرق بعد ذلك بين المؤمن والكافر ، الإيمان والكفر ؟ وما هو الفرق بين حقيقة العمل الذي يقوم به وبين حقيقة العمل الذي يقوم به المنافق ؟

إنّ إقدام المؤمنين على اتّخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين يعطي الدّليل على أنّهم منافقون ، وقد بيّنت الآية الكريمة التّالية عقاب المنافقين . وفي سبيل تحذير المؤمنين من عمل شنيعٍ كهذا تسأل الآية الكريمة في تذييلها المؤمنين في أسلوب الإنكار : أتريدون أن تجعلوا ، بولائكم للكافرين ، لله تعالى سلطاناً بيّناً أنّكم منافقون وحجّةً واضحةً أنّكم لستم مؤمنين !

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/٢١٦ وتفسير ابن كثير ١/٥٦٩ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٥/٢١٦ ويقال : ثَغَت الشّاة تُغاءً : صوّتت . يقال : ما له ثاغية ولا راعية ، أي لا شاة ولا ناقة . والنّشز ، بفتح الشّين : المكان المرتفع .

(٣) الآية ٢٨ .

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟
دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

الاعتصام : التّمسّك والتّعلّق[1] .

حذّرت الآية الكريمة السّابقة المؤمنين من أن يعملوا عمل المنافقين في موالاة الكافرين فينالوا جزاءهم . وإنّ أولى الآيتين الكريمتين تبيّن جزاء المنافقين يوم القيامة وعقابهم الأليم . وإنّ ثانية الآيتين الكريمتين تبيّن دخول من تاب من المنافقين إلى الله تعالى توبةً نصوحاً الجنّة التي عرضها السّماوات والأرض ، وفي ذلك حثٌّ للمؤمنين الذين قاموا أو كادوا يقومون بعمل المنافقين بأن يتوبوا إلى الله تعالى الذي يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ويعلم ما يفعلون .

إنّ النّار دركات كما أنّ الجنّة درجات[2] ومن سمات الدّركات الهبوط سُفْلاً ومن سمات الدّرجات الارتقاء عُلُواً . وإنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار وفي قعر جهنّم ولن تجد لهم أيّها الإنسان يوم القيامة ، ولو حرصت ، نصيراً ينصرهم من عذاب الله تعالى بدفعه عنهم أو تحويله .

وتستثني الآية الكريمة التّالية من المنافقين من تاب إلى الله تعالى توبةً نصوحاً ، وعمل الصّالحات ، وفي ذلك الدّليل العمليّ على صدق التّوبة وينبغي أن يردف هذا الدّليل العمليّ الظّاهر والذي تجلّى في عمل الصّالحات بدليلٍ آخر باطن ذي شقّين ، الأوّل : الاعتصام بالله تعالى والتعلّق بحبله ، حبل الإسلام لله ربّ العالمين وعروته الوثقى شهادة ألّا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله وبقيّة الأركان والتّعاليم ، والتّمسّك بعهد الله تعالى وميثاقه . والثّاني إخلاص الدّين لله تعالى بعبادته جلّ ولا وحده لا شريك له والقيام بكلّ الأعمال الصّالحة الموافقة للشّرع الحكيم ابتغاء وجه الله تعالى وحده لا شريك له وليس ابتغاء الرّياء والسّمعة وحسن الأُحدوثة . إنّ المنافقين الذين يتوبون إلى الله تعالى وتتحقّق فيهم الشّروط

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/٢١٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٧٠ .

التي نصّت عليها الآية الكريمة سيكونون – وعداً من الله تعالى ، ومن أصدق من الله تعالى وعداً وقيلاً وحديثاً – مع المؤمنين في الجنّة التي عرضها السّماوات والأرض ، والتي أعدّها الله تعالى للمتّقين ، والتي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

أما وقد تحوّل المنافقون مؤمنين ، وأصبحوا معهم وجزءاً منهم لا يتجزّأ ، فإنّ الآية الكريمة تبيّن ثواب المؤمنين الكبير وأجرهم العظيم . وبما أنّ الأجر العظيم إنّما يكون بدخول الجنّة ، وبما أنّ الآية الكريمة السّابقة قد تحدّثت عن النّار وكونها دركات ، فكأنّ هذه الآية الكريمة قد تحدّثت عن الجنّة وكونها درجات . فعلى كلّ منافق أن يتحوّل مؤمناً مسلماً لله ربّ العالمين ، كي يكون بفضل الله تعالى وكرمه مع المؤمنين في جنّاتٍ عدنٍ التي يلقّون فيها تحيّةً وسلاماً .

مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

بيّنت الآية الكريمة قبل السّابقة عذاب المنافقين الأليم ، وبيّنت الآية الكريمة التّالية أجر المؤمنين العظيم ، ومن هؤلاء المؤمنين التّائبون إلى الله تعالى توبةً نصوحاً المؤمنون العاملون للصّالحات بعد أن كانوا منافقين . إنّ المنافقين وقد ماتوا على نفاقهم استحقّوا النّار . وإنّ المنافقين وقد تابوا إلى الله تعالى وماتوا وهم مؤمنون استحقّوا الجنّة . وإنّ لسان حال الآيتين الكريمتين تعبّر عنه الآية الكريمة التي نحن بصددها وقد تبيّن أنّ من عوقب فبعدلٍ من الله تعالى ومن أثيب فبفضلٍ من الله تعالى .

إنّ الآية الكريمة تسأل : ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى لا يعذّب من شكر وآمن . والخطاب يتّجه إلى من كانوا منافقين وقتاً من الأوقات وإلى غيرهم . إنّ الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرّة ، يعذّب من استحقّ العذاب ويثيب من استحق الثّواب . إنّ الله سبحانه وتعالى لا يعذّب أحداً مِنّا إن نحن شكرنا لله تعالى نعمه التي لا تعدّ وآلاءه التي لا تُحْصى فقمنا بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له وأخلصنا له العبادة جلّ وعلا ، وإن نحن آمنّا برسوله الكريم وبما أوحى الله تعالى إليه من قرآنٍ مجيد وسنّةٍ مطهّرة وترجمنا تعاليمهما إلى عمل .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى شاكرٌ لمن شكر له بعبادته جلّ وحده لا شريك له ، مثيبٌ له على عبادته وإحسانه ، عليمٌ بمن أخلص له العبادة ومن لم يخلص أو أشرك معه جلّ وعلا في العبادة سواه ، مجازٍ كلاً وفق عمله ونيّته ، إن خيراً فخير وإن شرًّا فشرّ . لا يعزب عنه تعالى مثقال ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتابٍ مبين .

إنّ الآية الكريمة تثبت للذّات العليّة تامّ العدل وكامل الفضل .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

فهرست الموضوعات

الموضوع	الآيات	الصّفحة
المقدّمة	....	٥
بين يديّ التّفسير	....	٢٧
تمام المحرّمات من النّساء وبعض الأحكام	٢٤ - ٢٨	٥١
عنايةٌ بالأموال والدّماء وحثٌّ على القناعة وإيتاء ذي الحقّ حقّه	٢٩ - ٣٣	٦٣
الرّجال قوّامون على النّساء	٣٤ ، ٣٥	٧٥
الأمر بعبادة الله وطاعة الرّسولة وبالإحسان إلى العباد والنّهي عن الشّرك بأنواعه	٣٦ - ٤٣	٨٩
من صفات أهل الكتاب السّيّئة وعقاب الكافرين وثواب المؤمنين	٤٤ - ٥٧	١١١
الأمر بأداء الأمانة والحكم بما أنزل الله وبطاعة الله والرّسول وتبيين ثواب الطّائعين	٥٨ - ٧٠	١٣١
الأمر بالجهاد واستجابة المؤمنين وإعراض المنافقين والتّذكير بيوم القيامة	٧١ - ٨٧	١٥١
ما لكم في المنافقين فئتين ؟	٨٨ - ٩١	١٧٣
ما كان لمؤمنٍ أن يقتل مؤمناً إلّا خطأً وحثٌّ على الجهاد والهجرة والصّلاة	٩٢ - ١٠٤	١٨١
أنزلنا إليك الكتاب للحكم به وتبيين فضلنا عليك وثواب المؤمنين وعذاب المشركين	١٠٥ - ١٢٢	٢٠٣
إنّ الدّين عند الله الإسلام ولله ما في السّماوات وما في الأرض	١٢٣ - ١٣٤	٢٢١
كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله وآمنوا بالله ورسوله	١٣٥ ، ١٣٦	٢٣٧
من صفات المنافقين ووجوب الحذر منهم	١٣٧ - ١٤٧	٢٤٣